اللغة العاميّة واللغة الفُصحى

(تابع لما في الجزء السابق)

واما الامر الثاني وهو قصور الفاظ اللغة عن أدآء الاغراض العلمية والصناعية وسائر المواضعات العصرية فمما لا خلاف فيهِ ولا ينكرهُ او يستخفّ بحاجتنا الى تداركهِ الاَّ من غابت عنهُ احوال العصر ولم يرَ من الكتب الا ما انتهى الينا من بقايا صحف الغابرين ولم يعلم من الشؤون الاجتماعية الا ما يقرأهُ في جرائد الاخبار وكتب الروايات . ولو تسنى لبعض ادبآئنا ان يقرأوا شيئاً من المجلات العلمية التي تصدر تباعاً من الآفاق الاوربية والاميركية او يتصفحوا كتاباً من الكتب العلمية او الصناعية في احدى لغات اولئك الاقوام ويروا ما هنالك من غرائب المصطلحات التي لم يمرّ طيفها بخلد احدٍ من واضعي لغتنا ولا نجد فيما وضعوا لفظاً يعبَّر بهِ عن شيءٍ منها لارتفع لهم شيءٌ من ذلك الحجاب ولعلموا ان ما يتعللون بهِ من الدعاوي الفارغة يموّهون بها على انفسهم وعلى القرآء ليس الا ضرباً من التغرير والاستسلام للقدر حتى يقضي قضآءهُ على ايديهم ويتخذهم اعواناً على انفسهم وعلى بلادهم. بل حَسْب من ذهب بهِ الغرور هذا المذهب ان يزور احد باعة البضائع الافرنجية ويسألهُ عن اسمآئها ثم ينظر بمَ يسميها من اوضاع لسانهِ بل حسبهُ ان يدخل ردهة منزلهِ ويتفقد ما فيها من المرافق وادوات الزينة ثم ينظر هل يجد لشيءٍ منها اسماً عربياً. فان قال ولكن هذه من مصنوعات الاجانب وُلدت عندهم وسُمّيت بألفاظهم قلنا فهل وُلدت ألسنتنا عندهم ايضاً والا فأين ما ندعيهِ من اتساع لغتنا ووفرة موادّها وصلاحيتها لتمثيل كل ما يراد من

المعاني . على ان كل جديدٍ اليوم يأتينا من عندهم فان سمينا كل ما نتناولهُ عنهم بلفظهِ الموضوع في لسانهم فعلى لغتنا السلام وحينئذٍ فلا نقف عند حدّ استبدال اللغة العامية من الفصحى ولكن تصبح لغتنا خليطاً من العربية وسائر اللغات الافرنجية على ما تقدمت لنا الاشارة اليهِ وعلى ما نرى مثلهُ اليوم في الاحاديث اليومية حتى في لغة الفلاّح اذا سمّى بعض ادواتهِ فضلاً عن المباحث العلمية

على ان دعوانا اتساع اللغة مما لا ينكرهُ علينا منكر ولكن معنى اتساعها أن في اوضاعها ما يتسع لأن يشتقّ منهُ الفاظٌ لما شئنا من المعاني لا أن كل معنًى لهُ لفظٌ موضوع لان اصحاب اللغة لم يتنبأوا بما سيحدث بعدهم من المسميات حتى يضعوا لها اسماءً قبل وجودها . ولذلك لا بد لنا من النظر في وضع ما لم يضعوهُ واستدراك ما فاتهم مما حدث في العصور المتأخرة ولا يكفينا في هذا المقام ان نقول ان لغتنا كانت في بعض ما مرّ بها من العصور لغةً علمية فان العلم اليوم غير العلم في الزمن الاول فهو لا يُتلقى عن الاولين تلقّي الاقوال المُنزَلة فضلاً عن ان يبقى محصوراً في الحدود التي بلغوا اليها ولكن هذا العصر عصر بحثٍ وتنقيب وقد انقلب فيهِ العلم وتبدلت حقائقهُ ومصطلحاتهُ حتى لم يبقَ مما قررهُ الاولون الا رسومٌ واطلال فضلاً عما احدث المتأخرون مما لم يكن للسابقين بهِ عهد . وهذا قانون ابن سينآء المشهور كان يُعتبَر الى زمنٍ قريب مجموع العلوم الطبية بأسرها وكان اليهِ مرجع جميع الاطبآء والمصنفين في الشرق والغرب ومن زاد عليهِ شيئاً لم يتعدّ شرح بعض مسائلهِ أو اختصار بعض فصولهِ ومثلهُ كتاب المجسطى لبطلماوس في

علم الهيئة وكتب ارسطاطاليس في الفلسفة ولكن هذه الكتب لم يبقَ لها ذكرٌ اليوم الا في برنامجات المكاتب القديمة ولا يطلب علمآء هذه الايام الوقوف عليها الا بقصد الاطلاع على الشيء الغريب كما يحبّ احدنا الاطلاع على عوائد اهل الصين مثلاً . ولذلك فان ما وضعهُ السلف من الالفاظ العلمية لا يكاد يغني عنا شيئاً من المطالب العصرية حتى في العلوم التي بحثوا فيها ولكنهُ ولا ريب الدليل المَقنَع على ما ذكر من ان اللغة لا تضيق عن حاجتنا والحجة الناطقة بتقصير ائمة العلم منـا واستسلامهم بأفضل ذخائرهم لعوامل الضياع . على أنّا اليوم في اول شوطنا وقد قرع اسماعنا من التنبيه ما يكفي لأن يوقظنا من غفلتنا ويحثنا على المبادرة الى سدّ هذه الثلمة وتدارك اللغة من الفوات فان فعلنا والا لم تلبث ان تلحق باللغات الغابرة ولا يبقى منها الا ما حفظتهُ الخزائن من مصاحف الاولين

وما استغربنا في هذا المقام الا كلاماً لبعض مكاتبي المؤيد يقول فيهِ ما نصهُ « واما اقتراح بعض الافاضل " تشكيل " جمعية لاستبدال الكلمات الاعجمية بما يرادفها من الكلمات العربية فهذا امرٌ لا طائل تحتهُ (! !) فان تشكيل جمعية لاجل تعبير نحو مئة كلمة (كذا) فهذا يمكن " لجريدة " مثل جريدة المؤيد ان تقوم به » .....

واغرب من هذا ما جآء لمكاتبٍ آخر في العدد التالي قال ما حرفيتهُ « وقبل وضع القلم لا بد من التكلم على امرين الاول تعديل اقتراح ذلك الفاضل في المؤيد بأن كل كاتب ممن " نوه عنهم " المقترح يكتب للمؤيد كل ما يراهُ بهذه الصدد وأقترح مع هذا ان يكون المؤيد حكماً .. اما انتظار

تأليف جمعية فأمرٌ يطول واليك ما اراهُ

« تسمى عربة أو توموبيل (جوابة) وعربة الترامواي (سيارة) والتلغراف بسلك (برق) والتلغراف بدون سلك (لمح) أو (شعاع) والتلفون (سفير) أو (الناقل) أو (النمام) والفنوغراف (سمير) والفتوغرافية (عين) أو (رصد) والستتمواغرافية (خيال) .. والياقة (رقبية) والحرملة (كتفيّة) والبنطو (ظهري) والبنطلون (ساقان) نكاقان » .....

كذا ما قرأناهُ بحرفهِ ورسمهِ . فانظر بعيشك هل سمعت قطّ أو كنت تترقب ان تسمع مثل هذا الكلام واذا كان هذا جلّ ما تنتظرهُ الامة من علمآئها وكتابها في مثل هذا المعترك فيا لفشل الامة ويا لضياع اللغة بل هي البشرى للمستر ولمور واصحابهِ بخروجهم من هذا المجال فائزين ... والا أفليس من الغريب ان يُنشَر مثل هذا الكلام في جريدةٍ هي اشهر جرائد العربية واشيعها ثم لا يوجد بعد نشرهِ من يردّ هذا القائل الى هداهُ ويدفع عن القرآء هذا التغرير الفاضح ولا سيما والمقام مقام مناظرة او كما يعنونهُ المؤيد تنازع بقآء والخصم واقفٌ بالمرصاد يرمينا بالجهل والغباوة

كلاّ ايها الكاتب الخبير انها ليست «مئة كلمة» كما توهمت بل لو نظرت في احدى المجلات العلمية وقرأت انبآء ما يحدث كل يوم عند اولئك القوم من فنون الاختراع وضروب الاكتشاف لوجدت المئة كلمةً في جزءٍ واحد منها . ولا نكلفك الوقوف على معاجم المصطلحات العلمية والصناعية واصغرُها كمعجم بولياّي المطبوع منذ نحو اربعين سنة يبلغ لا اقلّ من ١٨٠٠ صفحة كبيرة بالحرف الدقيق تتضمن الصفحة لا اقلّ من ٦ الى ١٠ كلمات هي

رؤوس الموادّ فضلاً عما يتخلل شرحها من التفاصيل وكل ذلك لا تجد عندنا منهُ ما يملأ عشرين صفحة والباقي مما يتعين علينا ترجمة بعضهِ وتعريب البعض الآخر . ولا نذكر ما حدث في مدة هذه الاربعين سنةً التي اربت الاختراعات والاكتشافات فيها على كل ما سبق منها في السنين الغابرة ولا سيما في فنَّي الكيميآء والكهربآئية مما لا يدخل تحت حصر ولا تزال حلقاتهُ متتابعةً الى هذا اليوم . وحسبنا من ذلك ان نشير الى كتاب موسوعات العلوم الكبير الذي شُرع في طبعهِ منذ سنواتٍ باللغة الفرنسوية وقد بلغ الى الآن نحواً من خمسة وعشرين مجلداً كل مجلدٍ منها لا تقل صفحاتهُ عن الف صفحةٍ كبيرة غالبها فيما ذكر وهو لم يبلغ ختامهُ بعد . على ان مؤلفيهِ لم ينتهوا الى ما وصلوا اليهِ اليوم حتى صار يلزمهم ان يرجعوا فيهِ على حافرتهم ويزيدوا عليهِ ما حدث بعد طبع ما طُبع منهُ ثم هلمَّ جرًّا بعد ذلك الى ما يعلم الله حدَّهُ . ومع هذا كلهِ فان من ادبآئنا من يقول ان تأليف جمعية لتعريب الالفاظ التي فاتتنا امرٌ لا طائل تحتهُ وهل من طائل اعظم من هذا ان استطعنا ان نبلغ منهُ ولو القدر الذي تدعو اليهِ أمسّ حاجاتنا الحاضرة وكان فينا رجالٌ قوَّامون بمثل هذا العمل الكبير . ام سبق الى وهم هذا الكاتب ان كل جمعيةٍ لغوية — بل كل جمعية وطنية — تكون على مثال « المجمع اللغويّ » المشهور . . . اللهمَّ ان كانت الجمعية التي أُشير بعقدها ستجري على خطة المجمع المذكور فنحن اول من يشير بتركها تفادياً من تجديد ذلك الوسم المعيب والجمع بين عار التقصير وعار الفشل

(ستأتي البقية)